

كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القديس يوسف في بيروت، في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الذي قام بتنظيمه قسم علم النفس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تكريمًا للبروفسور منير شمعون وهو بعنوان "المعاناة المتعلّقة بالهويّات"، في ١٩ أيار (مايو) ٢٠١٧، في الساعة الرابعة من بعد الظهر، في مدرّج أبو خاطر، حرم العلوم الإنسانية.

مع ترحيبي الحارّ لكم ولكنّ جميعًا في هذا المؤتمر الذي يحمل عنوان "منير شمعون والمعاناة المتعلّقة بالهويّات"، أودّ أن أقول في الوقت نفسه إنّه لمن الواجب بالنسبة إلى جامعة القديس يوسف وبالنسبة إلى قسم علم النفس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية أن يُعقد هذا الحدث لمُدّة يومين. إنّه لواجب فكريّ وإجتماعيّ ووطنيّ، كما أنّه واجب أسبغ عليه صفة النفسيّ.

إنّه لواجب فكريّ تجاه منير شمعون لأنّه كان لا بدّ لنا من الاطّلاع من جديد على قائمة مؤلّفاته الغنيّة التي تحتوي الكتب والمقالات والمحاضرات حول مواضيع مختلفة توحدّها تلك الحاجة الملحة لدى عالم النفس في التوغّل في أعماق النفس البشريّة، في كلّ حالاتها، وتفسير تحركاتها وتصرفاتها وتوجّهاتها والعمل على مصالحتها وتوحيدها. كان منير شمعون خير شاهد على ذكائه ونباهته، هو الذي كان يعرف كيف يفهم الحقائق، ويتلمّس ما هو خفيّ ويبينه للمستمع أو المحاور بطريقة منطقيّة وخاصّةً بطريقة تربويّة. إذا كان منير شمعون يتمتّع بالذكاء والنباهة، كان أيضًا يتسلّح بهذا الذكاء وسيلة لينجز عمله، ومصطلح النباهة هذا هامّ لنقل المعرفة إلى عددٍ كبير من التلاميذ والطلاب الذين تعلّموا سرّ العمل النفسيّ "على يده" كما نقول باللّغة العربيّة، وهذا يعني أنّ المعرفة، بالنسبة إليه، كانت بحاجة دائميًا إلى يد معطاء تنقلها إلى المريض الذي يصغي إليه، سواء كان حقيقيًا أو محتملًا. إذا تمكّنت الدراسات النفسيّة في الشرق الأدنى والأوسط على تحقيق تقدّم مهمّ جدًّا خلال السنوات السّتين الماضية، فمن المؤكّد أنّ عين منير شمعون المدركة كانت هنا لتتابع نفس قايين وطرد رغباتها الجامحة وغيرتها القاتلة التي تؤدي إلى الكثير من المعاناة والألم والقلق، ومن ثمّ التعبير عن كلّ هذه المشاعر وتدوينها.

إنّه لواجب إجتماعيّ يُترجم بكلمة تتلائم جدًّا مع منير شمعون وهي كلمة الضيافة، "بمعنى الجهويّة والاستقبال والإصغاء إلى الآخر، مترجمةً إنترامًا ومسؤوليّة ضمن اللقاء مع الآخر". هذه الجهويّة نحو الطلاب والزملاء الآخرين ونحو أولئك واللواتي كانوا يلتمسون النصح هي ثابتة من ثوابت شخصيّة لطالما

كانت دمثة ومرفقة ببسمة هي بمثابة جواب على طلب وعبور نحو الخلاص. لم يخذل منير شمعون أي شخص طلب منه محاضرة أو مداخلة أو مقالاً أو حديثاً. السنوات الخمسة عشر أو العشرين الأخيرة اتّسمت بسلسلة من الإلتامسات الموجهة إلى منير شمعون للمشاركة في توعية أهل التلامذة أو التلامذة أنفسهم حول المواضيع الأكثر تنوعاً، من حالات الإدمان المختلفة إلى موضوع حرية الشباب والمواقف الجيدة التي يتوجب على الأهل اتّخاذها في ظروف جديدة حيث كلّ شيء يبدو متقلّباً من السلطة. هذه الضيافة كانت موقفاً ايجابياً وتربوياً لما تمتّع به منير شمعون من سلطة أبوية وأخوية وتعليمية كان يعكسها كبراً على المشاكل المتأتية من سوء الفهم القائم بين الأجيال.

الواجب الوطني يرتبط أكثر بلبنان ويتجاوز أيضاً لبنان الجغرافي ؛ هذا الواجب المتمثّل في تكريم ذكرى منير شمعون قائم على إرادته ألا يستسلم في ما يتعلّق بالحرية والثقافة اللتين كانتا بالنسبة إليه ضرورة حتمية. ألم يعتبر علم النفس التحليلي متضامناً معهما ؟ فقد كتب قائلاً : "لا وجود لعلم نفس تحليلي إلا في مناخ من الحرية وفي علاقة تفاعلية للفرد مع نفسه ومع الآخرين والقضايا المثالية الكامنة في الأنا العليا في جدلية قائمة بين التبادل والوساطة."

أستعيد بالتالي ما كان يقوله أحد تلامذته : " بالنسبة إلى شمعون، يشارك علم النفس التحليلي دوراً في بلورة مشروع سياسي ولا يمكنه أن ينفصل عن الثقافة الديمقراطية الضامنة الوحيدة لتعدّد الطرق التي تتخذها ذاتية الإنسان وكذلك المفاهيم التي تتيح المجال للتفكير في هذه الطرق. لهذا السبب كان التزامه في شؤون المدينة متلازماً مع النشاطات التي كان يقوم بها في علم النفس التحليلي والتربية".

أنهي كلمتي بإبراز واجب نفسي محتمّ علينا لأنّ منير شمعون قام بدور شجاع ألا وهو العمل على نفسية اللبنانيين والشرقيين من أجل تحريرها من العديد من الخرافات، وهو موضوع كرّس له كتاباً كاملاً وفيه ركّز على دور الوعي المدمر في موقف الإنسان هذا الذي يجعل القوى الغريبة تثقل حياة البشر وتوجّهها. وأمام هذه الشرور وغيرها التي تهدّد وحدة الحياة النفسية وهويّتها، يدعو شمعون لاكتساب المعرفة و"المهارة وطريقة وجود ساهمت إلى حدّ كبير في تطوير الهوية الشخصية". مع العديد من زملائه وتلاميذه، يمكنني أن أشهد وأقول "كم كان منير شمعون حريصاً على ترسيخ هذه الهوية وتهدئة القلق والمعاناة المتعلقة بالهويّات، خصوصاً في أوقات الحرب أو الهجرة."

إذا كان هذا المؤتمر يُعقد اليوم النور ويستقبل فكر الأستاذ شمعون وشخصيته، فهذا يرجع إلى عمل أشخاص مميزين كأولئك الذين كانوا مقتنعين ولا يزالون بوجود واجب نابع من القلب والعقل للحديث عن منير شمعون وإرثه. أوجه شكري أيضًا إلى شريكنا الدائمة ألا وهي الوكالة الجامعية للفرنكوفونية. لا يسعني إلا أن أشكركم لأنكم جنتم كتلاميذ أصدقاء تجتمعون حول منير لتعيشوا هذا الوقت المميز من العودة إليه بعد إحدى عشر شهرًا من وفاته. إنها علامة وفاء وولاء وعربون صداقة وواجب الذاكرة.